الفصل الثالث

الاتحاد من أجل المتوسط
ماله وما عليه

obeikan.com

obeikan.com

زار السيد برنار كوشنير وزير الخارجية الفرنسى (السابق) الأراضى الفلسطينية المحتلة وأدلى بتصريحات تثلج الصدر قال فيها: «على إسرائيل إن توقف الاستيطان! وطالب بضرورة تخفيف المعاناة عن الفلسطينيين. ونادى بضرورة إقرار الأمن والسلام فى المنطقة بإقامة دولتين: فلسطينية إلى جانب العبرية.

وبات مطلوباً منا إن نفرح، ونفرك الأيدى طرباً ونشوة ففرنسا (الدولة الكبرى. والعضو الدائم فى مجلس الأمن، والعضو الفاصل فى حلف الناتو، والعضو البارز فى مجموعة الدول الثمانى الصناعية (الكبرى) قد تحدثت بما ينبغى فعله إقرارا للأمن والاستقرار فى منطقة الشرق الوسط.

ومن الجانب الفلسطينى ابتهج الرئيس محمود عباس وطالب (راجيا) فرنسا - ومن خلفها أوروبا- أن تلعب دوراً فاعلاً فى عملية السلام..

أريد أذكّر بأن ها المشهد سواء من جانب فرنسا (وأوربا) أو من جانب الفلسطينيين تكرر مثنى وثلاث ورباع فى العقود السابقة مع اختلاف فى الشخوص والأفراد. والسبب -من وجهة نظرى- هو أن هناك مساحة تغيب عن بالنا فى الجانب العربى وهى مساحة لتوزيع الأدوار، فالولايات المتحدة وأوروبا ينسقان موقفهما تنسيقاً كاملاً بحيث إذا اضطرت بعض الظروف الداخلية مثلاً -أن تعطل دور أحدهما إلى حين نجد أن الدور الآخر ينشط ولا يكف عن الحركة وإعلان التصريحات.

وترجمة ذلك -عملياً- هو فيما نراه اليوم -فالولايات المتحدة مشغولة بالانتخابات الرئاسية، وساكنى البيت الأبيض (أقصد الرئيس جورج دبليو بوش) مشغول -هو الآخر- بلملمة أوراقه، وترتيب حقائبه استعداداً للرحيل من المكتب البيضاوى الذى أقام فيه نحو ثمانى سنوات.. فكان لابد أن تعطى إشارة من نوع ما إلى فرنسا (وأوروبا) لكى تتحرك لكن يبقى الدور (الخارجى) فاعلاً ومؤثراً ولذلك جاء السيد برنار كوشنير وزير خارجية فرنسا إلى المنطقة (وسوف يأتى كثيراً فى الأشهر القليلة القادمة وربما ينافسه فى المجيء إلى المنطقة السيد

شيتاينماير وزير خارجية ألمانيا، ولا بأس أيضاً فى زيارات سريعة يقوم بها وزير خارجية بريطانيا وإسبانيا..

كل ذلك فى إطار ملء الفراغ الذى كانت تشغله السيدة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية بزيارتها المكوكية التى لم تحرك ساكنا ولم تخرج -هى الأخرى- عن حدود التصريحات التى تعطينا -فى بعض انمرات- من طرف اللسان حلاوة..

ولأننا مُتهمون بأن ذاكراتنا مليئة بالثقوب وحالها -فى هذا- أشبه بحال قطعة الجبن الفرنسية- فلابد إن نستدعى أحداثاً مُشابهة جرت فى نهاية فترة الرئيس السابق بيل كلينتون أى تحديداً منذ نحو تسع سنوات.. كان الرجل -قبيل خروجه من البيت الأبيض- مشغولاً بترتيب الرحيل، كانت المفاجأة إن فرنسا (وأوروبا) خرجت علينا بحديث ملأ الرجاء حول مبادرة أوروبية بشأن عملية السلام، وكان مهندس هذه المبادرة هما وزير خارجية فرنسا وأسبانيا.

وأحدثت المبادرة -بمجرد الإعلان عنها- دوياً فى الأوساط العربية التى رحبت -كعادتها- بأى تحرك أوروبى يساعدنا فى الخروج من قبضة -القطب الأوحد- الولايات المتحدة الأمريكية.

..وأذّكر بأننا انشغلنا طوال الأشهر الأخيرة من العمر الرئاسى لبيل كلينتون بالحديث عن الدور الأوروبى المفقود، والذى عاد بعد غياب، وأفضنا فى تحليل التوازن المرغوب بين القوتين (الآمريكية والأوروبية) دون أن ننسى توجيه الانتقادات اللاذعة لاحتكار أمريكيا للقرار الدولى، وانفرادها بل واحتكارها (كراعية لعملية السلام) فى الشرق الأوسط.

وظللنا ندور فى هذا (الحديث اللذيذ) عدة أشهر دون أن يتقدم الوضع -على أرض الواقع- خطوة واحدة.. فزيارات (فرنسية وإسبانية وايطالية وبريطانية) احتلت عناوين الصحف ونشرات الأخبار مُحاطة بآمال وأمنيات ورغبات مشبوبة تريد السلام ووقف الدماء التى تسيل فى الأراضى المحتلة.

حتى إذا استقر المقام للساكن الجديد فى البيت الأبيض (وكان فى هذه الحالة) الرئيس جورج دبليو بوش، حتى وجدنا الدور الأوروبى يعود إلى سابق عهده منكمشاً لا يتجاوز حدوده الضيقة، ولا نكاد نسمع له أى صوت أو تصدر عنه أية حركة إلا فى أضيق الحدود، وفى الإطار المسموح به أمريكيا.

*** ما معنى هذا الكلام؟**

معناه أن أمريكا وأوروبا لا يختلفان عن بعضهما البعض وأن التنسيق بين مواقفهما هو أمر استراتيجي يرسمانه معاً وفق مصالحهما فى المنطقة.

ومعناه أيضاً هو أن قرار «تمدد» أوروبا أو «انكماشها» هو قرار أمريكى، فأوروبا تصبح مارداً، يصول ويجول، ويبقى بوفوده، ومبعوثيه إذا ما أرادت أمريكا ذلك، وبالصورة المسموح بها، والمهمة هى ملء الفراغ الأمريكى إلى حين..

ثم تعود إلى دوائر الانكماش إذا ما استتبّ الأمر لساكن البيت الأبيض ليتولى بنفسه هذه اللعبة التى لا تخرج عن انحياز تام لإسرائيل فعلاً لا قولاً ثم الاكتفاء بحديث مرن بعض الشيء (مليء بالتسويفات) للجانب العربى الذى يظل فى حالة ترقب وانتظار ناسياً أن «جودو» لن يصل لأنه فى الأصل غير موجود.. و«جودو» هنا هو السلام الذى ضاع، ومازلنا نملأ رؤوسنا بأوهام أنه عائد لا محال..!!

وفى إطار مسألة توزيع الأدوار نلاحظ أن الدور الأوروبى (الذى يظهر كعادته فجأة وينتهى دون سابق إنذار) ينشط فنجد إن التصريحات المرنة تترى -بلا توقف- على ألسنة كبار المسؤولين الأوروبيين ربما لتحويل الأنظار عن تصريحات الرئيس الأمريكى ووقع خطابيّه فى الكنيست الإسرائيلى ، ومؤتمر دافوس شرم الشيخ واللذين أحدثا ارتجاجاً فى العقل السياسى العربى الذى وجد نفسه (مكشوفاً) حتى لا أقول (مفضوحاً) أمام الشعوب العربية.. لأن ما قاله بوش الابن فى الخطابين لم يخرج عما ألفناه واعتدناه منه وهو التأييد الأعمى لإسرائيل.. لكن العقل السياسى العربى (الرسمى) كان التقط الطعم وصدّق أكاذيب بوش وترهاته طوال السنوات الثمانى الماضية. وحاول عبثاً إقناع الشعوب العربية

بذلك.. فجاء الخطابان فى الكنيست وشرم الشيخ ليكشفان المستور.

** يبقى أن نذكر أن تحركات برنار كوشنير وزير خارجية فرنسا تندرج فى إطار التنسيق بين القوتين (أمريكا وأوروبا) ولذلك ليتنا لا نفرح كثيراً وأن نضع كل الأشياء والتحركات فى مكانها الصحيح انطلاقاً من فهمنا لأولويات التى تؤمن نفسها فى حقل العلاقات الدولية.. ومنها أن أمن إسرائيل – كما قال جورج دبليو بوش نفسه – هو جزء متمم للأمن القومى الأمريكى..

وأن أمن إسرائيل مرة أخرى –كما قال الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى– يحتل مكاناً متقدماً فى أولويات السياسة الخارجية الفرنسية. وحدنا نحن العرب الذين نتعامل فى السياسة الخارجية بمنطق رومانسى انطباعى مع أن ألف باء السياسة هى أن لغة المصلحة هى الضابط الوحيد لإيقاع أية سياسة فى المنطقة والعالم.

- باختصار نحن قوم لا نتعلم من تاريخنا القديم والحديث فالرهان لا يجب أن يكون على هذه القوة أو تلك من القوى الخارجية –فلا أوروبا ولا أمريكا يمكن أن تفعل أى شئ من أجلنا.. فقط إذا حقق الأمر سهماً مصلحة بعينها سنجد الدعم الكامل.. وماعدا ذلك فلن يتحرك ساكن.

فأوروبا ليست أفضل من أمريكا، ولئن كانت الأخيرة شيطاناً، فالأولى ليست بالقطع ملاكاً.

** الحوار مع أوروبا.. فواصل وتقاطعات

الثابت أن الحوار مع أوروبا بدأ يتجه نحو التعميق والتوسيع والشمول بعد أن غاب الاتحاد السوفيتى عن الساحة الدولية وأصبح أثراً بعد عين.. والسبب هو رغبة المنطقة العربية فى إيجاد بديل يناوئ القوة الكبرى (الولايات الندة الأمريكية) ويحفظ نسبياً التوازن الذى كانت توفره تعادلية القطبية الثنائية.. وعلى الجانب الأوروبى كان هناك مسعى نحو الانفتاح على جنوب المتوسط أخذ أشكالاً عديدة عبر العقود الماضية.. بدأ بالدعوة المتبادلة للحوار بعد حرب

١٩٧٣.. لكن لم يُقدر لهذا الحوار الاستمرار إذ سرعان ما تعثر بسبب أن أوروبا كانت تطلب منا غير ما نطلبه منها فمطلبها كان اقتصادياً بالدرجة الأولى (فتح أسواق الجنوب أمام منتجاتها) والأهم ضمان ألا يتكرر استخدام النفط سلاحاً فى الصراعات السياسية كما حدث فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. أما مطلبنا فكان الدعم السياسى لقضايانا على الصعيد الدولى وفى المحافل العالمية وخصوصاً قضية فلسطين.

أقول كان طبيعياً أن يتعثر الحوار الذى فشل مرة أخرى عندما حاولت أوروبا أن تنفخ فيه من روحها لنفس الأسباب وهو غلبة المطلب الاقتصادى على غيره من المطالب. يضاف إلى ذلك سبب أكثر أهمية وهو غياب الشعور (بالندّية). أولاً لا يمكن لأى حوار أن ينشأ وتتسع دوائره ويعود بالنفع على المتحاورين فيه إلا إذا قبع فى رأس الطرفين أنهماً يقفان على قاعدة واحدة (فليست هناك قامة أعلى من قامة).. ومعلوم أن شرط الندية هو الضمان الوحيد لنجاح أى حوار.. ولأن ذلك لم يكن موجوداً فى الحالة الأوروبية - العربية وحل محله الشعور بالسمو والتعالى لدى الجانب الأوروبى فكانت النتيجة هى الفشل أو على الأقل السكون وعدم الحركة.

وبالأجمال مرت مرحلة من الركود حتى خرجت أوروبا علينا -مجدداً- بفكرة- برشلونة والتعاون الأورومتوسطى فى عام ١٩٩٥، التى عندما راجعها العرب فى عام ٢٠٠٥ وبمناسبة مرور عشر سنوات على انطلاقها كانت المفاجأة أنهم لم يحصلوا -بمقتضاها- إلا على الفتات فإجمالى ما حصلت عليه دول جنوب المتوسط لم يزد عن ١٪ من إجمالى ما قدمته دول الشمال من مبادرات ومشروعات والأدهى إن إسرائيل وحدها -كدولة جنوبية- قد التهمت ٩٪ من إجمالى المخصوص لدول جنوب المتوسط مجتمعة!.

والمفاجأة الثانية أن نصيب الدول المشاطئة للبحر المتوسط جنوباً يساوى بالتمام والكمال ما حصلت عليه دولة واحدة فى شرق أوروبا (هى بولندا).

بهذا المعنى تكون معادلة التعاون الأورومتوسطى ليست فى صالح الدول العربية المتوسطية.. وإذا لاحظنا أن عدم استقرار الأوضاع فى فلسطين المحتلة (بسبب التعنت الإسرائيلى وسياسة إرهاب الدولة التى تمارسها - قد أديا إلى إصابة عملية برشلونة بداء الجمود.. لاكتشفنا إن حصاد هذه العملية هزيل.

الغريب أن الجانب العربى لم يشعر بالقلق وحسبه أن أيدى هذه الملاحظة انتظاراً لمبادرات أخرى - والسبب هو أنه اعتاد على تلقى المبادرات وليس اختراعها أو التقدم بها.. فمثلاً -عندما أدرك الأوروبيون أن عملية برشلونة قد تعثرت هى الأخرى اتجهوا من فورهم للحديث عن برشلونة مُصغرة أسموها بعملية ٥+٥ وترمى إلى تنشيط التعاون الأورومتوسطى بشكل جزئى بين خمس دول شمالية فى مقابل خمس دول جنوبية. وبهذا تفادوا الاصطدام بإسرائيل المصّرة على مواقفها المتنكرة للحقوق العربية وحق الشعب الفلسطينى فى إقامة دولته موصولة الأطراف، والقابلة للحياة.

ولقد أثمرت برشلونة المصغّرة بقدر طموحاتها.. ولم يتحرك العرب! ثم تفتقت الذهنية الأوروبية عن فكرة التعاقدات الثنائية التى أطلقت عليها اسم «الشراكة».. وبدأتها باتفاقيات شراكة مع كل دولة على حدة فى محاولة للقفز على العقبات التى وقفت فى طريق عملية برشلونة الجمعية أو الكلية.. وأنبرى العرب -كعاداتهم- يتسابقون، ووقعت دول عربية كثيرة هذه الاتفاقيات الثنائية بعد مفاوضات تطول أو تقصر بحسب المطروح على جدول التفاوض.

ثم يثمر العقل السياسى الأوروبى مبادرة أخرى هى مبادرة سياسية الجوار التى أراد بها إن تحتل منزلة بين المنزلتين، فالأعضاء فيها ليسوا متساوين وليسوا مجرد شركاء كحال الدول المرتبطة بالشراكة مع أوروبا. واختار الأوربيون هذه العبارة وصفاً لسياسة الجوار: إنها أكثر من شريك وأقل من عضو..« وحرصوا على ترويجها وضمان دعمها على الأقل من دول الجنوب..

وبتنا نلاحظ إن دولاً كثيرة بدأت تكيّف نفسها مع هذه السياسة الجديدة، كما

فعلت نفس الشيء مع المبادرات الأوروبية السابقة.. وهو ما يعيد - بإلحاح- طرح السؤال: لماذا نكتفى بدور المُستقَبل، ولم نفكر -فى لحظة- أن نأخذ زمام الأفكار، فنطرح المبادرات، وندخل فى نقاشات مع الطرف الأوروبى.. الآن فى السكون بركة أم لأننا أدمنا السهل. والسهل بطبيعة الحال هو استقبال الأفكار وليست إنتاجها!. على أية حال كانت المفاجأة الجديدة إن فرنسا -صاحبة الثقل السياسى الأبرز فى أوروبا- قد أخرجت من حقيبتها بعد تولى ساركوزى مقعده فى قصر الإليزيه رئيساً فكرة سياسية اسماها: الاتحاد من أجل المتوسط.. وتحدث على الفور بأنه سيعقد قمة أورومتوسطية لمناقشتها فى باريس فى ١٣ من يوليو المقبل - ثم قام بنحو ثمانى زيارات فى أقل من ثلاثة أشهر حاملاً فيها فكرة الاتحاد من أجل المتوسط ومتحدثاً وشارحاً مع رؤساء الدول الذين استقبلوه أبعاد هذا المشروع الذى يحمل اسمه (مشروع ساركوزى).

وللإنصاف يجب إن نذكر إن بعض الدول العربية منها مصر علقت موافقتها على هذا المشروع ريثما تُحاط علماً بتفاصيله وطرحت أسئلة منها: هل سيلغى هذا المشروع عملية برشلونة أم سيكون مكملاً لها.. وفى أى جانب ستتمحور إسهاماته..!

ولقد وفرت فرنسا -من جانبها- كافة الظروف لإنجاحه فهى فى أول يوليو سوف تتولى الرئاسة الدورية للاتحاد الأوربى ووضعت على رأس أجندتها إنجاح مشروع ساركوزى وقالت: أنها ستدعو فى القمة المتوسطية الدول الـ٧ الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى والدول الـ ١٣ المطلة شرقاً وجنوباً على المتوسط إلى جانب موريتانيا والأردن، والبرتغال وتحدثت -فى ذات الوقت- عن الانتقال مباشرة من الأفكار إلى المشاريع والتى ستشمل كافة القضايا الأمنية والسياسية والاقتصادية بدءاً بالهجرة وحرية الحركة والتنقل ومفهوم الأمن الجماعى المتوسطى إلى جانب قضايا البيئة والطاقة والتعليم والثقافة والتعاون العلمى.. وثمة حديث عن إنشاء صندوق استثمار من أجل التنمية فى المتوسط، ومرصد للتعاون والهجرة

ووكالة للتأهيل المهنى لتشجيع الهجرة المؤهلة، وإقامة منظمة متوسطية للتعاون الاقتصادى والتنمية على غرار منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية الموجودة فى باريس والخاصة بالدول الصناعية.

أريد أن أقول إن مشروع ساركوزى الخاص بالاتحاد من أجل المتوسط -كما يبدو- من تفاصيله التى تتكشف يوماً بعد يوم هو مشروع متكامل تدشن به فرنسا فى عهد ساركوزى مرحلة جديدة من الفاعلية والايجابية وتقديم المبادرات.. ولقد تعامل العرب مع المشروع بنفس روح الصبى الصغير الذى اعتاد على إن يدخل عليه (والده) بالجديد فى الطعام والملبس.. هذه الروح التى تجعلنا فى جنوب المتوسط مجرد متلقين ومستقبلين للأفكار هى روح سلبية تزيد من (تقزيم) الشخصية العربية وتكرس فيها الاتكالية والتواكلية والاعتماد على (جهد وعرق وفكر) الآخر.

** قضايا الحوار وإشكاليات الجوار!

أقسم أن هناك خللا ما فى العلاقة العربية – الأوربية، ينطلق أساسا من أننا نرى فى أوروبا ما ليس فيها ونصر على أن نضع غمامة على عيوننا تحجب عنا الرؤية الصحيحة.. فأوروبا – مثل باقى المناطق- تؤمن بأن السياسة لا تعرف الهدايا أو الرومانسيات، ومن ثم فهى تتعامل مع دول العالم من منطلق المصلحة، ولا وزن عندها لجوار أو حوار مادام لا يصب فى نهر المصالح الدافق، والمستمر والمتجدد.

أقول ذلك وفى ذهنى المطلب الإسرائيلى – الذى تبحثه أوروبا حاليا –وهو أن يكون لإسرائيل صفة شبه العضو داخل دوائر الاتحاد الأوروبى مع مشاركة فعالة فى آليات القرار السياسى والاقتصادى والأمنى والعسكرى.. وهو مطلب جد خطير، لأنه يفسح المجال أمام الدولة العبرية لكى تمارس ضغوطا شتى على العرب فى تعاملهم مع دول الشمال، خصوصا أوروبا التى تربطها بهم دوائر عديدة أبرزها –فى المرحلة الآنية- الدائرة المتوسطية بأشكالها المختلفة، سواء كانت

عملية برشلونة أو خمسة + خمسة أو الاتحاد من أجل المتوسط.

..ومن يتابع ردود الفعل العربية على هذا المطلب الإسرائيلي، الذى تبحثه أوروبا بجدية من خلال ما يعرف بلجنة التفكير الأوروبية – الإسرائيلية يدرك على الفور أنها ردود تغلب عليها صفة العاطفية أو العشم، مع أن السياسة – كما أسلفنا- لا يعرف قاموسها أمورا كهذه.. والثابت عملا أن العلاقات الأوروبية – الإسرائيلية تسير باتجاه الارتقاء والتطوير، ولن يكون مستغربا- بعد المناقشات اللازمة – أن تحصل إسرائيل على ما تريد وعندئذ ستفقد أوروبا دورها – الذى كنا ننتظره دائما- وهو دور الوسيط النزيه فى الصراع العربى – الإسرائيلى، لتلحق – والحالة هذه- بالولايات المتحدة التى تعتبر أن أمن إسرائيل هو جزء من الأمن القومى الأمريكى بل والأمن العالمى! وأن أى خطر يتهددها لن تواجهه بمفردها وإنما سينضم ليها فى هذه المواجهة ٣٠٠ مليون أمريكى.. إذن نحن أمام تحولات كبرى فى السياسة الخارجية.. والمحزن هو أن العقل السياسى العربى لا يزال يصر على وضع الغمامة متوهما أن أوروبا هى – بحسب المفردات السياسية الشائعة عربيا – هى الصديق الذى تربطه بنا دوائر الجوار الجغرافى وثقافة حوض البحر المتوسط مع أن هذه الدوائر تفقد وزنها وتتبخر كما يتبخر الماء أمام حرارة المصلحة الأوربية التى ترى أنها (مضمونة) و (مطلوبة) مع إسرائيل بدرجة أكبر من الدول الأخرى.. وكلنا يعلم أن مشروع الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى الخاص بالاتحاد المتوسطى والذى تبنته أوروبا حاليا يكرس هيمنة إسرائيل على الدول العربية (المتوسطية) ويقدم لها فرصة لتطبيع سياسى يكون حلالا زلالا وسهلا وميسورا برغم أنف العرب..

.. والمثير للتساؤل أن أوروبا التى تهش وتبش فى وجه إسرائيل وتميل إلى منحها صفة شبه عضو فى الاتحاد الأوروبى، رفضت مجرد مناقشة طلب المغرب –قبل سنوات- بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبى، كما تسوف حاليا وتماطل فى قبول عضوية تركيا داخل الاتحاد.. بل هناك من يقول إن مشروع الاتحاد المتوسطى يستهدف فى جانب منه صرف نظر تركيا عن الانضمام إلى الاتحاد

الأوروبى والانخراط -بالمقابل- فى هذه الآلية الجديدة الخاصة بحوض البحر المتوسط.

.. الغريب والعجيب أن بعض الردود العربية على مناقشة أوروبا المطلب الإسرائيلى الخاص (بشبه العضوية) قد استهجن المرونة التى قابل بها الأوروبيون هذا الأمر، مع أن جملة المواقف الأوروبية طوال الأعوام الماضية تؤكد أن إسرائيل تحتل مكانة لا تدانيها أخرى فى العقل السياسى الأوروبى..

ولو بدأنا بآخر هذه المواقف والخاصة بآلاف المستوطنات التى تصر إسرائيل على بنائها فى القدس الشرقية سنجد أن أوروبا لم تبد امتعاضا، أو تبرما من هذا العناد الإسرائيلى.. فلم تتحرك -مثلا- اللجنة الرباعية (التى تضم بين أعضائها الاتحاد الأوربى) واكتفت بدور المتفرج.. وليس مستبعدا أن تستعمل بريطانيا وفرنسا باعتبارهما عضوين دائمين فى مجلس الأمن حق النقض (الفيتو) فى حال التصويت على جريمة الاستيطان فى القدس الشرقية..

وكلنا يذكر ميوعة الموقف الأوروبى عندما طالب العرب بتحويل قضية الحائط (العنصرى) داخل الأراضى الفلسطينية المحتلة على محكمة العدل الدولية.. وكذلك اللامبالاة التى تواجه بها أوروبا جرائم الإبادة الجماعية (من قتل واغتيالات وتجويع) ضد الفلسطينيين.

.. ما أعجب منه هو إصرارنا على أن نفرق بين السياستين الأوروبية والأمريكية مع أن القاصى والدانى يعلمان أن الفوارق قد ذابت، إلى حد أن السياستين قد تماهتا فى بعضهما البعض.. ولم يعد هناك فرق كبير بين ما يقوله جورج دبليو بوش، أو حتى المرشح القوى للرئاسة باراك أوباما وبين ما يقوله الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى، أو المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل.. لقد أصبح الجميع يقفون فى خندق واحد وعلى مسافة واحدة (وقريبة) من إسرائيل.. أما المسافة مع العرب فقد تباعدت كثيرا، واختلفت باختلاف الدول العربية.

وللإنصاف يجب أن نذكر أننا ظللنا لفترة طويلة نفصل بين علاقة أوروبا

بإسرائيل، وعلاقة أوروبا بالعرب وكنا لا نرى غضاضة فى أن تقوى علاقة أوروبا بإسرائيل، لكن شرط ألا يتم ذلك على حساب الحقوق العربية، والاصطفاف عن وعى أو غير وعى إلى جانب إسرائيل التى تقتل وتغتصب وتسفك الدماء.. فهذا ما بات يستوجب إعادة النظر فى العلاقة مع أوروبا.. ولم يعد يفيد فيها القول بالصداقة (المزعومة معها) أو علاقة الجوار.. فالثابت أن أوروبا – كحال أمريكا- لم تعد ترى فى جنوب المتوسط سوى إسرائيل (شريكا وحليفا إستراتيجيا) ولذلك لم تتردد فى مناقشة كل ما طلبته إسرائيل فى خريف عام ٢٠٠٧، وهو الحصول على صفة شبه العضوية فى الاتحاد الأوروبى ورفع مستوى الحوار السياسى، وعقد اجتماع على مستوى القمة بين الجانبين مرة كل عام، وتأمين مشاركتها فى اجتماعات الاتحاد فى قضايا السياسة الخارجية والانخراط فى المهمات العسكرية والأمنية التى تضطلع بها قوات الاتحاد الأوروبى إضافة إلى مشاركة ممثليها فى اجتماعات الشؤون المالية والبيئة والعدل والصناعة والعلوم.

.. وهذا معناه أن شوكة إسرائيل سوف تقوى مرتين، مرة بالامتيازات التى ستحصل عليها بمقتضى شبه العضوية، ومرة أخرى فى إطار الاتحاد من أجل المتوسط الذى سيمنحها الحق فى أن ترأس هذه الاجتماعات التى سيجضرها العرب وأنفهم فى الرغام!!

والمؤلم هو أن إسرائيل خططت لهذا التغلغل فى الدائرتين الأوربية والمتوسطية، ونحن فى الجانب العربى، لم نحرك ساكناً، الله لا صوت هنا، وأخر خافت هناك، مع أن الدبلوماسية العربية تبدو -ظاهريا- نشطة ولكن لرأب الصدع (المستحيل) فى لبنان، ووقف نزيف الدم العربى (الطاهر) فى فلسطين والعراق.. والحيلولة دون تردى الأوضاع أكثر وأكثر فى دارفور، وضبط نفس الفرقاء فى المغرب والجزائر حول الصحراء الغربية.. وبدأ الأمر وأنه (دعابة) عندما قال دبلوماسى عربى كبير: إن العرب مشغولون بالقضية الأكبر وهى تربيع الدائرة!!

***

**** اتحاد من أجل المتوسط أم من أجل فرنسا؟!**

الرئيس الفرنسى السابق ساركوزى متهم بأنه ممتلئ بالحنين (نوستالجى) إلى المرحلة الاستعمارية لبلاده، وراغب إلى حد الجنون فى أن تلعب فرنسا دوراً (قيادياً) على الساحة الدولية، لذلك فإن أفكاره (جميعاً) تدور حول هاتين الرغبتين. وللإنصاف فإن ساركوزى قد تحدث فى برنامجه الانتخابى (قبل أن يصل إلى مقعد قصر الإليزيه) عن خطته التى داهم بها الجميع. فمثلاً فكرته عن إقامة ما سماه «الاتحاد من أجل المتوسط» لم يستوعبها الكثيرون، ربما حتى هذه اللحظة، لكنه مُصّر عليها، ولم يكف عن الحديث عنها فى جولاته ولقاءاته، وعندما سُئل عن تفاصيل هذا الاتحاد أجاب بأنه كلف مجموعة من الخبراء ورجال الإستراتيجية داخل وحدة بحثية ملحقة بقصر الإليزيه لكى تبحث هذه الفكرة وتضع جميع التفاصيل لطرحها بالكامل، فى القمة التى حدد موعدها بنفسه فى ١٣ من يوليو بباريس.

وليس خافياً أن الرئيس ساركوزى يلعب أوراقه السياسية (على المكشوف)، وكان نجاحه فى إقناعه بأوروبا (بتبسيط) اتفاقية ماستريخت المؤسسة للاتحاد الأوروبى هو الدينامو الذى حركه نحو مزيد من الأفكار التى يراها البعض، مثل ألمانيا أفكاراً لا تخدم سوى الطموح الفرنسى، لذلك كان طبيعياً أن تثير فكرة الاتحاد من أجل المتوسط أعصاب المستشارة الألمانية ميركل، التى اتهمت ساركوزى بأنه يريد تقسيم دول الاتحاد الأوروبى لحساب فرنسا، كما اعتبرته اسبانيا وإيطاليا (كارها) لوجودهما (الفاعل) فى منطقة حوض البحر المتوسط.

ولكى نفهم مدلولات هذا الصخب الأوروبى الذى ملأ الدنيا وشغل الناس، علينا أن نشير إلى محددات هذا المشروع من وجهة النظر الفرنسية، وهى كالتالى: أن يضم البلدان الواقعة على حوض البحر المتوسط شمالاً وجنوباً وينفصل انفصالاً تاماً عن مسار عملية برشلونة، ويتأسس على مشاريع إقليمية يشارك فيها القطاعان العام والخاص، وألا يكون نسخة مطابقة للاتحاد الأوروبى.

وكان طبيعياً أن تفهم الدول الأوروبية الأخرى أن هذا المشروع يكرس الحضور الفرنسى وحده بحيث تصبح باريس منافساً قوياً لبروكسل عاصمة الاتحاد الأوروبى، سيما أن ساركوزى نفسه لم يخف أن اتحاده من أجل المتوسط يلغى تماماً مسار برشلونة المتجمد عملياً، إلا قليلاً، منذ انطلاقه فى عام ١٩٩٥ وحتى اليوم، وعندما رفعت ألمانيا عقيرتها (اعتراضاً) استقبلتها الدول الأوروبية بحفاوة بالغة، وفى اجتماع المجلس الأوروبى الذى انعقد فى بروكسل فى مارس الماضى تم إجهاض أفكار ساركوزى جميعاً، إذ تم توسيع المشاركة فى المشروع ليضم الدول الـ ٢٧ الأعضاء فى الاتحاد الأوروبى، وليسس فقط الدول الأوروبية المشاطئة للبحر المتوسط شمالاً، وضغط الأوروبيون لكى تشارك دول ليست مطلة على البحر المتوسط.

كما انصاع ساركوزى لمطلب بروكسل بدمج مشروع الاتحاد من أجل المتوسط ضمن مسار برشلونة، بحيث يمكن اعتباره امتداداً له، أو على أقل تقدير، كما قال كوشنير وزير خارجية فرنسا، مرغماً ومجملاً فى آن واحد «تجديداً لشباب» مسار برشلونة الذى أصابه تصلب فى الشرايين بسبب التعنت الإسرائيلى، وتجمد عملية السلام مع الفلسطينيين.

الثابت أن مشروع الاتحاد من أجل المتوسط الذى يسيل حوله مداد كثير فى هذه الأيام، هو الصورة المعدلة بعد تدخل أوروبا، ولقد قبله ساركوزى على مضض، لكن اقتناعه بجذور الفكرة لا يزال يملأ رأسه، فالرجل يؤمن إيماناً راسخاً بأهمية وحيوية منطقة حوض البحر المتوسط، ويرى أن الحلم الأوروبى (الخاص بإقامة أوروبا العظمى) يحتاج إلى حلم متوسطى، وهو حلم حضارات وليس حلم غزوات، فزمن بونابرت ونابليون الثالث قد ولى وانتهى، ناهيك عن أن الإستراتيجيات القارية الواسعة (التى تعتبر عنواناً لعصرنا الراهن) تحرض على وضع إستراتيجية أوروبية إفريقية يكون المتوسط بمثابة القلب أو المركز لها.

وفى طنجة بالمغرب أسهب ساركوزى فى حديثه عن مشروع الاتحاد من أجل

المتوسط، فذكر أن التاريخ يحدثنا عن أن قرارات الحرب والسلم والمواجهة بين الشمال والجنوب يتم اتخاذها فى منطقة المتوسط، وهذا معناه، كما يقول، أننا فى المتوسط إما أن نفوز بكل شيء، أو نخسر كل شيء! والثابت للجميع أن ساركوزى لا يريد الخسارة، وإنما ينشد أكبر قدر من «الربحية» التى يراها سهلة عبر المشاركة بين ضفتى المتوسط.

صحيح أنه حاول أن يهرب من حالة «انسكونية» التى يعيشها مسار برشلونة منذ ثلاثة عشر عاماً، وصحيح أيضاً أنه لا يريد أن يصطدم بإسرائيل أو تركيا، فبحث عن إطار جديد لا يعكر صفو الدولة العبرية، ويطرح بديلاً لتركيا يعوضها عن انضمامها إلى الاتحاد الأوروبى، لأنها بحسب قوله، دولة أوروبية جغرافياً! لكن إحقاقاً للحق لقد انطلق الرجل من الواقع الصعب الذى تعيشه دول حوض البحر المتوسط خصوصاً تلك المشاطئة للبحر جنوباً، فأشار فى حسرة إلى واقع الاختلالات الديموجرافية والاقتصادية فيها.

فذكر، فى شيء من ضيق أن ضفتى المتوسط برغم قربهما لبعضهما البعض فإنه يفصلهما أكبر فارق فى الدخل فى العالم «فدخل الفرد فى الجنوب لا يزيد على ثلاثة آلاف دولار فى العام، مقابل ثلاثين ألفاً فى أوروبا» (والفارق هو من ١ إلى ١٠)، بينما تمس البطالة نحو ٣٠٪ أو يزيد بين صفوف الشباب الجنوبيين.

والسؤال الآن: ماذا عن الإرادة العربية باعتبار أن الدول العربية المتوسطية هى الطرف الثانى فى معادلة الاتحاد من أجل المتوسط هل أصبحت لدينا أجندة واحدة أم أن كل دولة ستحاول أن تكسب لنفسها استحقاقات دون أن تلزم نفسها بمواقف الدول العربية الأخرى؟

إن أخشى ما أخشاه هو أن تطمئن كل دولة لما يمكن أن تنتزعه لنفسها، فمصر قد يطربها أن تنعقد لها الرئاسة المشتركة (لمدة عامين)، والمغرب قد يسعدها أن يكون الأمين العام (الجنوبى) مغربياً وتونس قد يرضيها أن تكون هى دولة المقر للاتحاد من أجل المتوسط لو حدث ذلك لتفرقنا مجدداً إلى شيع وأحزاب،

وأتصور أن المرحلة الآتية لم تعد تحتمل مثل هذه المكتسبات الفردية الصغيرة.

وظنى أن الدول العربية المشاطئة للمتوسط جنوباً يمكن أن تصوغ أجندة عربية مشتركة تركز فيها على المطالب العربية الأكثر إلحاحاً، والداعمة لإقرار الأمن والسلام فى المنطقة، وأن تفطن إلى السم الذى قد يكون مدسوساً فى العسل. فإسرائيل كدولة من دول الجنوب، وعضو فى مسار برشلونة، لا يمكن التطبيع معها مجاناً، وإذا كان لابد أن تصعد يوماً فى الرئاسة المشتركة (والأمانة العامة للاتحاد)، فهل تقبل الدول العربية أن تمثلها إسرائيل مجاناً؟ إنه سؤال يجب أن يدق كالناقوس فى العقل السياسى العربى.

لا نريد أن نكون كالأيتام على مائدة اللئام.

للإنصاف يجب أن نذكر أن بعض الدول العربية المشاطئة للمتوسط جنوباً رحبت (فى تحفظ) بمشروع الرئيس الفرنسى الخاص بالاتحاد من أجل المتوسط، وتحدثت عن ضرورة بقاء مسار التعاون الأورومتوسطى بحيث لا يجُبْ مشروع ساركوزى عملية برشلونة التى انطلقت فى عام ١٩٩١.. وطالبت فى وقت مبكر بمزيد من الإيضاحات والتفاصيل حول هذه الفكرة التى بدت أشبه بالحجر الذى ألقى به من علٍ فحّرك المياه الراكدة فى بحر العلاقات بين الشمال والجنوب..

وظنى أن هذا الموقف العربى يعكس درجة قصوى من الفهم الصحيح لمفردات العلاقات الدولية فى القرن الحادى والعشرين، ولدوافع التحرك الأوروبى (أيضاً) التى لم تخرج عن حيّز المصالح الاقتصادية والسياسية والأمنية.. صحيح أن ما يُؤخذ على الجانب العربى (المتوسطى) أنه أشبه بريشة فى الفضاء تنتظر ما يأتيها من رياح عاتية من دول الشمال فتميل معها دون أن يكون لها أى خيار.. ولعل مسار عملية برشلونة هو الترجمة الواقعية لهذا الحال (الميئوس منه) منذ ولادته فى أوائل العقد الأخير من القرن الماضى وحتى اليوم

وعبر كافة التجلّيات التى ظهر فيها..

فكلنا يعلم أن التعاون الأورومتوسطى هو فكرة أوروبية بامتياز وكذلك ما تمخض عنه من شراكات ثنائية بين دول 'لاتحاد الأوروبى والدول المشاطئة للبحر المتوسط جنوباً ورغم المداد الذى سال (تمجيداً) لهذا المسار -وهو كثير- إلا أن حصاده كان هزيلاً إلى حد أن دول جنوب المتوسط شعرت -فى لحظة ما- أنها مخطوفة- أو هكذا بدت- لحساب دول الشمال التى استباحت أسواقها وعدّلت فى بنود اتفاقية الشراكة دون الرجوع إلى الشركاء الجنوبيين فاستبدلوا -مثلاً- عبارات التنمية والتحديث والديمقراطية بمفاهيم تدور حول الهاجس الأمنى ومكافحة الإرهاب والهجرة السرية التى تمثل صداعاً فى رأس القارة العجوز (أوروبا) كما وقعت فى خطأ اختزال مشكلات العالم فى مشكلة واحدة هى الإرهاب! ولابد أن نُسارع بالقول أننا لسنا ضد مكافحة الإرهاب الذى أصبح أخطبوطاً يُهدد الجميع ولكننا نتحفظ على الهبوط من سقف التعاون الاقتصادى والمبادلات التجارية (بين الفضاءين العربى والأوروبى) والذى تُلح عليه عملية برشلونة (من 'ألف إلى الياء) إلى سقف التعاون الأمنى... وهو إجراء خرج -بالفعل- بقاطرة التعاون الأورومتوسطى بعيداً عن الميادين المحددة (سلفا) مما ضرب عملية برشلونة فى مقتل..

الشيء الآخر الذى ألقى بظلال كثيفة على عملية برشلونة أنها -وبعد نحو سبعة عشر عاماً من انطلاقها لم يتمخض عنه سوى فأر صغير ينظر إليه «أهل الجنوب شذراً»، فليس معقولاً ألا تحصل دول جنوب المتوسط -مثلاً- سوى على ١٪ من إجمالى ما تقدمه دول الاتحاد الأوروبى من استثمارات وهو نحو ٩٪ وأن تستأثر إسرائيل -وهذا هو الأهم- وحدها بنصيب الأسدين (وليس فقط الأسد الواحد) فتحصل على ٤٥٪ من الاستثمارات الأوروبية الخارجية.. أما المفارقة الغريبة التى ليس بوسع أحد إخفاؤها فهى أن مجموع ما حصلت عليه دول جنوب المتوسط من هذه الاستثمارات يوازى ما حصلت عليه دولة واحدة من شرق

أوروبا هى بولندا!!

إنه عار بكل المقاييس يُضاف إليه عارُ آخر على الصعيد السياسى وهو أن كل قادة أوروبا –بدون استثناء– سعوا إلى فصل عملية السلام (وما يحدث من ذبذبات فى العلاقة بين العرب وإسرائيل) عن مسار التعاون الأورومتوسطى وهو ما يعنى أنهم أفرغوا هذا المسار من واحد من أهم بنوده التى جعلت العرب يرحبون بالانخراط فيه وما زاد الطين بلّة أن الجانب الأوروبى رفض الضغط على إسرائيل لكى تلين وتندفع باتجاه حل القضية الفلسطينية.. وبدلاً من المواجهة مع الدولة العبرية (التى تتحمل وحدها مسئولية الشلل الذى أصاب مسار التعاون الأورومتوسطى) استحدثت مساراً آخر هو مسار ٥ + ٥ بين دول المغرب العربى الخمس فى الجنوب، وخمس دول أوروبية مناظرة لها فى الشمال.. بهدف انهروب من منطقة الشرق الأوسط المشتعلة بسبب التعنت الإسرائيلى..

وعندما لم يُثمر هذا المسار الجزئى (٥ + ٥) إلا النذر اليسير جاء الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى بمشروعه الجديد (الاتحاد من أجل المتوسط) الذى يكّرس الفصل بين ما يحدث فى عملية السلام (صعوداً وهبوطاً) وبين مسار التعاون الأورومتوسطى.. وأخشى ما أخشاه أننا لو قبلنا هذا المشروع كما هو – ودون إضافة بنود أو القيام بتعديلات –سيكون حالنا أشبه بحال الأيتام على مائدة اللئام الذين يقبلون ما يقدم إليهم حامدين شاكرين مُهللين!! وكأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان..

مرة أخرى أشهد أننى أثّمن غاليا جهود الخارجية المصرية التى أصرّت على أن يشارك الجانب العربى فى صياغة أهداف وبرامج هذا الاتحاد، بل وفى صياغة ما يصدر عن قمة باريس من وثائق وبيانات وخطط عمل.. وفى هذا تأكيد على أن رئاسة مصر (كدولة جنوبية) مع فرنسا (كدولة شمالية) ليست مجاملة وإنما هى رئاسة فاعلة ومؤثرة ويُعمل لها ألف حساب خصوصاً أن ساركوزى الذى لا يعوزه الدهاء وزع الأدوار فى مشروعه من قبيل استقطاب الدول والمحاور،

فاختار مصر (رئيساً) ولوّح لتونس بأن تكون دولة المقر للاتحاد الجديد. وأوعز إلى المغرب أن السكرتير العام الثانى (الجنوبى) سيكون مغربياً..

ولعله بذلك اطمأن إلى أن مشروعه سيأخذ تأشيرة دخول إلى عقول وقلوب دول الجنوب المتوسطى.. لكن هيهات!

obeikan.com